فيكون اذن اوّل مركز احتلّهُ الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الجبّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الأمّة المارونية كما اشرنا اليهِ غير مرّة

ومن الحوادث التاريخيّة الاولى التي جرت بعد سكنى الموارنة في لبنان ما ذكرناهُ في مقالتنا عن الجراجمة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الشيخ الشهير محمّد الاوزاعي ممّن دافعوا عنهم وانتصروا لهم. قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمّد بن سعد عن الواقديّ قال: خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجّه صالح بن عليّ بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلتهم واقرّ من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان. فحدثني القاسم بن سلّام انّ محمّد بن سعد حدّثهُ انّ الاوزاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة حُفِظ منها وقد كان من اجلاء الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجهِ: «ممّن قتلتَ بعضهم ورددتَ باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة حتى يُخرَجوا من ديارهم واموالهم...» (البقيّة للآتي)

يمين العليّ

رواية تاريخية للاب س. ت البسوعيّ (تابع)

الفصل الثالث

مأدبة لوقينيوس فرنطو

كان لوقينيوس فرونطو صاحب المأدبة التي دُعي اليها لوسيليوس رجلًا من اعيان بيروت ممّن تشرئبُّ نحوهم الاعناق وترنو اليهم الابصار. وكان القيصر نيرون منحهُ رتبة الفارس رجاء ان يؤلف قلبهُ فيجتذبهُ الى رومية ويجعلهُ من ندمائهِ لكنّ سراب الرتب المنيفة والالقاب الشريفة لم يكن ليخدعهُ فآثر ان يبقى في مدينتهِ رخيّ البال مأمون الجانب وهو فيها عزيز مكرّم من ان ينتقل الى جوار نيرون فيضيع بين حشمهِ ويتذلّل لمن سبقهُ الى نعمة القيصر

ونِعْم ما فعل فانّ اهل وطنهِ جازوا لوقينيوس عن امانتهِ خيرًا فجعلوا لهُ المعالي

الخطيرة والمراتب السنيَّة فاختاروهُ لسدانة اكبر هياكلهم وجعلوهُ كاهناً لخدمة الوهيَّة القياصرة . ولم يبقَ لهُ ليترقَّى الى ذروة المجد سوى ان ينـال منصب رئاسة البلديَّة (١) . على انَّ وجوه البلد كانوا يفكرون في ذلك لاسيَّما انهم كانوا يرون الاهلين مولعين بلوقينيوس يحبُّونهُ ويؤثرونهُ

ولم يحظَ فرونطو لدى الشعب فقط وانَّما كان ايضاً رجلًا سياسيًّا حاذقاً عارفاً بالامور مُحسناً لتدبيرها . ولمَّا مرَّ قسبسيـان في بيروت ورأى فرونطو ما كان لهُ من السطوة والبأس علم بانهُ سيفوز بعدوِّهِ ڤيتاليوس ويتولَّى زمام العالم الروماني

ومن ثم اجتهد فرونطو ان يتقرَّب الى قائد الجيش مدَّة اقامتهِ في المدينة ويأسر قلبهُ بمعروفهِ فكان يباري الامراء والملوك بما يهديه لقسبسيان من الالطاف ويتبرَّع لجندهِ من المال . ولما رأى سُحَيم (Soème) صاحب حمص وانطيوخوس الرابع ملك قوماجين واغريبا ابن هيرودس اغريبـا ملك اليهوديَّة واختهُ برنيقية يتسابقون الى الحظوى لدى قسبسيان لم يدَّخر هو وسعاً ليغلبهم بكرمهِ وجاههِ وبذخ عيشهِ فأولم لهُ ولقوَّاده الولائم الفاخرة التي دُهش لها المدعوُّون واقرُّوا لهُ فيها بالسبق

بيد انَّ لوقينيوس لم يصرف كل هذه المبالغ الَّا لينال جزاءهُ قريباً من قسبسيان ساعة يجلس على تخت القياصرة . فما بلغهُ في ذلك اليوم خبر مبايعة مجلس الاشراف في رومية للامبراطور الجديد وهو لم يخرج بعد من الاسكندريَّة حتى اوفد الوفود اليها والى رومية معاً امَّا الى الاسكندريَّة فليبلِّغ سلامه وفرائض التهانئ لمخدومهِ « القيصر الالهيّ » . وامَّا الى رومية فليشكر الشيوخ على مبايعتهم بالملك لمن هو جدير بهِ . وبعث ايضاً من قبلهِ رجلًا الى ليسينيوس موسيانوس عامل سوريَّة سابقاً وصديقـهِ الحميم يهنئهُ على الرتبة التي نالها وهي قيادة الجيوش الرومانيَّة ونيابة القيصر عليها وكان هذا الرجل دخل رومية واستولى عليها باسم قسبسيان سيِّدهِ

وكذلك الاعياد الشائقة التي أُقيمت في مساء ذلك النهـار في شوارع بيروت فكان لوقينيوس فرونطو انفق عليها من مالهِ الخاصّ مبلغاً عظيماً ومن ثم كنت تسمع القوم المتقاطرين من كل ارباض المدينة وانحاء لبنان يلهجون باسم هذا الفارس ويثنون

(١) هذه الرئاسة كان يتولَّاها عند الرومان رجلان من وجوه كل مدينة فيُدعَيـان لذلك باسم ديومڤير (duumvir)

عليهِ الثناء الطيّب فزادت بذلك شهرتهُ وعظُم شأنهُ

وكان زاد على هذه المظاهر العموميَّة انهُ اعدَّ في عشيَّة ذلك النهـار وليمةً دعا اليها كلَّ وجوه المدينة واصحاب الاقدار الشريفة ليقاسموهُ افراحهُ بارتقـاء الملك قسپسيان الى السُدَّة الامبراطوريَّة

وكان ليسينيوس صديق راسيوس روفوس من جملة المدعوّين لهذه الوليمة كما مرَّ ففارق روفوسَ وتركهُ اسيفًا كسيفًا ثمَّ سار الى بيت فرونطو وموقعهُ على حافة الطريق السائرة الى نهر بيروت. وكنتَ ترى اشراف البلدة آتين من كلّ صوب يحملهم العبيد على المحفات ويتقدَّمهم الخدَم بالنفَّاطات الموقدة وكانت هذه الانوار تزيد بهاء المشاعل والمصابيح التي كانت تزين البيوت الخاصَّة فتجعلها كأنَّها شعلة نار

امَّا ليسينيوس فانهُ كان يسير ماشيًا تزاحمهُ هـذه المواكب فكان يسمع العبيد يصرخون كلٌّ بلهجتهِ الخاصَّة. فهذا يقول: وسّعوا الطريق لكاپيتون الشريف. وذاك يردّد: حيدوا عن مسير ابن اوفيميوس. ويكرّر ثالث: إلَم تفتحوا طريقًا للضابط سَرْديوس أحلنا عليكم بالسياط. ولم يزل هو يمشي الهوينا حتى ادرك باب لوقينيوس حيث رأى الاشراف ينزلون من محفاتهم فيستقبلهم عنـد مدخل الدار اصحاب فرونطو وخدَمهُ ويساعدونهم على ارتقاء الدرج الرخاميّ الذي في وجه الدار

فدخل لوسينيوس مع الداخلين ولمَّا وصل الى ساحة الدار الداخليَّة وجد فرونطو وهو قائم يرحّب بالقادمين فسلّم عليهِ وكان كل كبار القوم اذا دخلوا يتقدَّمهم ترجمـان (nomenclator) فيذكر لصاحب الدار اسم المدعوّ والقابهُ فيصافحهُ فرونطو ويسلّم عليهِ سلامًا طيبًا ثم يدخلهُ الى ردهةٍ كبرى ينتظر فيها المدعوُّون ساعة العشاء

ولما صار ليسينيوس في القاعة اختار لهُ زاوية بقرب صديقين وجدهما هناك اسمهما كلپورنيوس وديودوتس فجلسوا يتجاذبون اطراف الحديث ويترقَّبون احوال المدعوّين

وكان المدعوّون في تلك الليلة من كل طبقات الناس لم يتأنَّق فرونطو كثيرًا في انتخابهم وغايتهُ ان يظهر أبهة دارهِ وسعة ذات يده. فكان التجـار واصحاب الفنون وصغار العمّال ممزوجين بذوي الرتب الجليلة كشيوخ البلد والقضاة وكبار الضباط واعيان الثغر من اهل الثروة والاملاك. وكان ديودوتس يعرفهم كلهم فاخذ يصفهم لصديقَيهِ كلپورنيوس وليسينيوس يساعدهُ على التمييز بينهم منظر حللهم الرسميَّة وما عليها من

النقوش والتطريز بالذهب . وكانت اصوات الحديث تتصاعد شيئاً فشيئاً فيُسمَع لها دويٌّ اجشّ . وبينما كانوا على ذلك اذ دخل المتسلم (questeur) فقام لهُ القوم اجلالاً ثمَّ عادوا الى حديثهم هنيهةً واذا بباب غرفة الاكل انفتح على فور فظهرت القاعة مشعَّةً بالانوار وعلى بابها عبدان صغيران بايديهما اكاليل اخذا يجعلانها على رؤوس المدعوّين وهما يشيران اليهم بالدخول بالرجل اليُمنى لتفاؤل اهل الزمان باليمين

فدخل القوم ودُهشوا لجمال تلك الحجرة وكثرة مفاخرها كنقوش سقوفها ومصابيحها الزجاجيَّة المصطنعة في الاسكندريَّة وصيداء وكانت روائح الندّ واللبان العربيّ تفوح من كل جانب يلقيها العبيد في النار فينتشر عبيرها في الدار

ثم اضجع المدعوُّون اثنين اثنين على مضاجع أُعدَّت على ثلاث جوانب المائدة

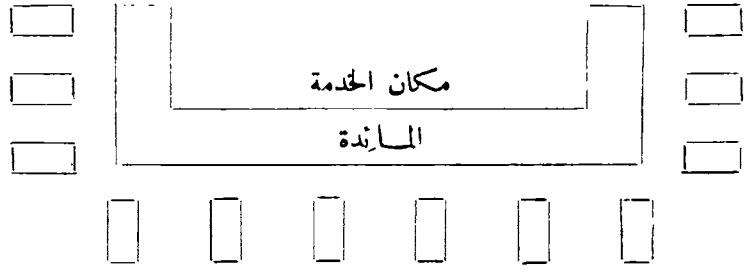

صورة المائدة عند الرومان وحولها فُرُش المدعوين يضّجعون عليها للاكل

وهي تتلألأ بصحاف البلّور وآنية الفضّة والجامات المرصَّعة بالذهب والحجارة الكريمة. فتقدَّم العبيد وحلُّوا لكل نديم احذيتهُ وضمّخوا رجليهِ بالطيب بينما كان الندماء يتدُّون كلٌّ على فراشهِ ويتكئون على احد مرافقهم للاكل

ثم باشر المؤاكلون بمقدَّمات الطعام عرضها عليهم العبيد ثم تزعوها من امامهم بسرعة غريبة حتى انَّ لسينيوس وصديقهُ ديودوتس وكلپورنيوس كانوا يترصَّدون الالوان فاذا قربت من ايديهم تسارعوا اليها وازدردوها ازدرادًا لئلَّا تفوتهم الفرصة اذ كانوا من صنف الطفيليين الذين لا يأكلون ليعيشوا بل يعيشون ليأكلوا

وبعد النقول اخذ الخدَّام بتقدمة الاطعمة كلحوم المواشي والدواجن والطيور والاسماك مع عدَّة مآكل مما كان يغالي بهِ الرومان ويستجلبونهُ من البلاد البعيدة. ثم انتهوا بالحلويات والقطائف والفواكه. وكان صاحب البيت في اثناء الاكل يلاحظ المدعوّين

لئلَّا ينقصهم شيء . وكان اذا اراد الحظوى لدى بعض ضيوفهِ يختصُّهم بقطعٍ يختارها لهم فيرسلها على يد العبيـد . ولذلك اسرَّ ليسينيوس الى ديودوتس قائلًا : ألا ترى فرونطو يؤلّف القلوب ليُصيب عندهم اثرةً ومكانةً . اما نحن فلا تراهُ يفكِّر فينا . قال ديودوتس : ان لم يخدمنا فرونطو فنحن نخدم نفوسنا . قال هـذا ورأى في يد احد الخدم صحفةً فيها سلوى فاستدعاهُ بالحاح بيد انَّ العبد اصمَّ دونهُ سمعهُ وقدَّم الصحن لغيرهِ

وكان عبيـد آخرون وقوفاً وفي ايديهم اجاجين مملوءة من صنوف الخمور كالخمر القبرسيَّة وخمر جزيرة ساموس وخمر حلبون (المجاورة لدمشق) يسكبون منها في اقداح الندماء فيفرغونها وكانت هذه الاشربة في الغالب من المدامة المعتَّقة تضرب سورتها في راس الشاربين . فما مرَّ عليهم ساعة من الزمان حتى علا لغطهم وارتفعت جلبتهم وكان منهم من يستغرب ضحكاً او يكثر من المجون والمزاح البذيّ

وكانت اجناس الاطعمة وصحاف الالوان تتوارد بلا انقطاع حتى كظَّ الطعام الآكلين . اما فرونطو فلما رأى انَّ ضيوفهُ شبعوا امر جوقةً من القيون بان يدخلنَ فيطربنَ الناظرين برقصهنَّ ففعلنَ وأرينَ الحضور من حركاتهنَّ العجـائب الغرائب والجمهور يصفّق لهنَّ ويشبع العيون من زفنهنَّ الخلاعي

ولما انتهينَ اشار فرونطو الى فرقةٍ من اصحـاب الطرب فاخذوا بعزف الملاهي وشنَّفوا ساعةً آذان المدعوّين بآلاتهم ثم عقَّبوا ذلك باناشيـد واغاني شجيَّة في مديح القيصر الجديد ووصف عظمة رومية امّ المدن واطراء المدعوّين وكانت بذلك نهاية هذه الحفلة التي دامت ستَّ ساعات متوالية

وكان المدعوُّون اصبحوا في حالةٍ يُرثى لها وهم بين نيـام وسكارى فاسرع اليهم عبيـدهم وحملوهم الى محفَّاتهم ثمَّ نقلوهم الى بيوتهم على عجلةٍ . اما ليسينيوس فدعا صديقيهِ لينامو عندهُ في بيتهِ الذي وصفنا موقعهُ فوق الاكمة المشرفة على النهر فساروا وهم يتمايلون ذات اليمـين وذات الشمال يمشون خطوة ويسقطون أخرى حتى بلغوا بعد الجهد الجهيد بيت ليسينيوس وامتدُّوا على فراشهم وهم لا يعون

وكان نور الصباح اخذ يتبلَّج والمدينة تستفيق من النوم (ستأتي البقيَّة)